حرف الفاء

فإن يك عزٌّ

كانت بنو عبس لما أخرجتهم حنيفة من اليمامة أرادوا أن يأتوا بني تغلب، فمروا بحي من كلب على ماء يقال له عراعر، فطلبوا أن يسقوهم من الماء وأن يوردوه إبلهم، وسيدهم، يومئذ، رجل من كلب يقال له مسعود بن مصاد، فأبوا وأرادوا سلبهم. فقاتلوهم، فقتل مسعود، وصالحوهم على أن يشربوا من الماء ويعطوهم شيئاً، فانكشفوا عنهم. فقال عنترة:

[الطويل]

ألا هَلْ أتَاهَا أنّ يَوْمَ عُرَاعِرٍ
شفى سَقَماً لوْ كانتِ النفسُ تشتفي[١]
فَجِئْنا عَلى عَمْياءَ ما جَمَعُوا لَنا
بأرْعَنَ لا خَلٍّ ولَا مُتَكَشِّفِ[٢]

(١) عُراعر: ماء لبني كلب. يذكر الشاعر واقعة تاريخية، انتصرت فيها عبس على بني كلب وقتلوا قائدهم مسعود بن مصاد، ممّا شفى نفس الشاعر منهم، فبلغ مُراده، وحقّق ما تمناه من النصر.

(٢) العمياء: الأمر المبهم. الأرعن: الجيش العرمرم. الخلّ: المتفرّق. المتكشّف: المنهزم. يصف الشاعر الحالة التي كانت عليها عبس، لم يستعدّوا لقتال وأمامهم جيش ضخم يأتمر بأمر سيِّده متّحد من عادته النصر.

تَـمـارَوْا بـنَـا إذْ يَـمْـدُرُونَ حـيـاضَـهُـمْ
عـلـى ظَـهـرِ مَـقـصـيٍّ مـن الأمـرِ مُـحْـصَـفِ[١]
وَمَـا نَـذِرُوا حَـتـى غَـشـيـنـا بُـيـوتَـهُـمْ
بـغـبْـيـةِ مـوْتٍ مُـسْـبـل الـوَدْقِ مُـزْعِـفِ[٢]
فَـظَـلْـنـا نَـكُـرّ الـمَـشْـرَفـيّـةَ فـيـهـمُ،
وَخُـرْصَـانَ لـدْنِ الـسَّـمـهـرِيِّ الـمُـثـقَّـفِ[٣]
عُـلالَـتُـنـا فـي كُـلّ يَـوْمٍ كَـرِيـهَـةٍ،
بـأسْـيـافِـنَـا وَالـقَـرْحُ لـمْ يَـتَـقَـرَّفِ[٤]

(١) تماروا: تجادلوا يبغون الغدر بنا. يمدرون: يعملون على إصلاح حياضهم بالمدور والطين ليحافظوا عليها. المحصّف: الأمر المحكم. كان حوار من جانب بني كلب ليمكروا ببني عبس، وهم يهتمون بالمحافظة على حياضهم بتحصينها بالمدر والطين، وقد أجادوا خطّتهم، وبيّتوها بليل.

(٢) نذروا: أعلموا. غشينا: دخلنا عُنْوة. الغبية: الدفعة العظيمة من المطر. مُسْبل الوَدْق: انصباب مطره. مزعف: مهلك. كان هجوم بني عبس خاطفاً سريعاً عنيفاً كأنه ودق دافق، وبدل أن يكون ماء حياة كان «رعافاً» مميتاً.

(٣) المشرفية: سيوف تنسب إلى مشارف الشام. الخُرصان، واحدها خرص: القنا. لدن: لينة. يصف الشاعر فعل قومه ببني كلب، فسيوفهم تقطع آجال أعدائهم والرماح تقصف آجالهم ايذاناً بنصر قريب.

(٤) ورد البيت في: لسان العرب ٩: ٢٧٩ مادة (قرف) «... وكذلك قَرَفَ القَرْحة فتقرّفت أي قشرها، وذلك إذا يبستْ؛ قال عنترة: ...، أي لم يعلّه ذلك». العلالة: ما يتعلّل به. القَرْح: يقصد به الجرح. لا بدّ من سبب لتكون الحروب، منها ما هو صحيح ومنها هو مفتعل ملفّق، والعلل كثيرة، واستعمال القوّة هو الطريق الوحيد لتنفيذ مآرب الطامعين، قبل التئام الجراح وشفائها يعمل بنو عبس على قسرها لتنزف من جديد مرّة أخرى.

أَبَيْنا فَلا نُعْطي السّواءَ عَدُوّنا،
قِياماً بِأَعْضادِ السَّراءِ المُعَطَّفِ[١]
بِكُلّ هَتُوفٍ عُجْسُها رَضْوِيّةٍ،
وَسَهْمٍ كَسَيْرِ الحِمْيَرِيّ المؤنَّفِ[٢]
فَإِنْ يَكُ عِزٌّ في قُضاعَةَ ثابِتٌ
فَإِنّ لَنا بِرَحْرَحانَ وَأَسْقُفِ[٣]
كَتائِبَ شُهْباً فَوْقَ كُلّ كَتيبَةٍ
لِوَاءٌ كَظِلّ الطّائِرِ المُتَصَرِّفِ[٤]

(١) السواء: الإنصاف. أعضاد، واحدها عضد: القسي. السَّراء: ضرب من الأشجار تستعمل أغصانها قسيّاً. المعطف المعوج. يفخر الشاعر ببني قومه فلا يتنازلون عن حقّهم لأعدائهم، فلغتهم الوحيدة سلاح فتّاك قاتل.

(٢) الهتوف: القوس التي تصدر صوتاً في حال تصويبها وذلك لشدّة وترها. العجس: عجز القوس ومقبضها حيث يشدّ الرامي به. رضوية: نسبة إلى أحد جبال المدينة المنوّرة. سهم مؤنف: محدّد الطرف. يعدّد الشاعر السلاح المستعمل في المعركة؛ فالقسيّ الرنّانة، يستعمل الأقوياء مهارتهم في الرماية عنها فتطير السهام قاصدة أهدافها بدقّة عجيبة، إنها صناعة رضوى الشهيرة بتلك الأنواع الجيدة.

(٣) رحرحان: جبل قريب من عكاظ خلف عرفات. أسقف: موضع في البادية. العزّ والمنعة والقوّة في قضاعة ثابت فينا. نحن بني عبس، ومنعتنا في جبل رحرحان تمتدّ حتى تشمل أسْقُفاً أيضاً.

(٤) كتائب، واحدتها كتيبة: فرق. شهب، واحدها أشهب: أبيض. المتصرّف: المتبدّل. يصف الشاعر حال بني عبس، إنهم جيش مقاتل منظم، يضمّ فرقاً عديدة؛ فكلّ فرقة تختص بعمل قتالي خاص بها، فتبدو في سماء عليائها كطائر لا يقرّ له قرار خلال طيرانه، فهو تارة يعلو وطوراً يميل ذات اليمين وذات الشمال، يناور أثناء طيرانه، تفادياً لعدوّ أو استعداداً لانقضاض.

وَغَـادَرْنَ مَـسْـعُـوداً، كـأنّ بـنَـحْـرِهِ
شُـقَـيْـقَـةَ بُـرْدٍ مِـنْ يَـمَـانٍ مُـفَـوّفِ[١]

المال مالكم والعبد عبدكم

كان عنترة قبل أن يدعيه أبوه حرشت عليه امرأة أبيه وقالت: إنه يراودني عن نفسي، فغضب أبوه من ذلك غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً وضربه بالسيف، فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه، فلما رأت ما به من الجراح بكت، وكان اسمها سمية، وقيل: سهية. فقال عنترة:

[البسيط]

أمِـنْ سُـهَـيّـةَ دَمْـعُ الـعَـيـنِ تَـذْرِيـفُ؟
لَـوْ أنّ ذا مـنـكِ قـبـلَ الـيـوْمِ مـعـرُوفُ[٢]
كـأنّـهـا يَـوْمَ صَـدّتْ مـا تُـكَـلّـمُـنـي
ظبيٌ بعُسْفانَ ساجي الطرْفِ مطرُوفُ[٣]

(١) الشقيقة، تصغير شقة: السبيبة المستطيلة من الثوب. المفوّف: البرد الرقيق، أو الذي فيه خطوط بيضاء. أسفرت المعركة عن مقتل سيد بني كلب مسعود بن مصاد، وقد غطّته الدماء الكثيرة حتى بدا كقطعة نسج يمانية مُزدانة بخطوط بيضاء ترصّع بلون أحمر قانٍ.

(٢) شعر عنترة ذاتي بمجمله، وهو ينقل معاناته بصدق البدوي، فيرسم لنا علاقاته مع البشر، إنها امرأة أبيه سُهيّة التي اتّهمته بأنه حاول التحرّش بها باطلاً، ممّا حمل أباه على ضربه حتى أدماه، وبعد فوات الأوان أحسّت بفداحة ما فعلت فذرفت دموعها، وقد يكون ذلك شعوراً بالذنب على كذبة أرادت أن تستدرّ عطف والد عنترة. وهو يلومها لو أنها تجنّبت ذلك ولم تكذب.

(٣) عُسْفان: منهلة من مناهل الطريق تقع بين الجحفة ومكّة. ساجي الطرْف: =